التحديات التي لاقت الإسلام

ونجح في مواجهتها

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد لاقى الإسلام في مساره صنوفاً من التحديات، وتجلت حيوية أجياله في قدرتها على مقابلة هذه التحديات، فتجعل من عقباتها معابر إلى آفاق أوسع، فكان التحدي هو أن يصل الإسلام إلى الآذان والعقول والقلوب، وأن يتحمل المسلمون مسئولية ذلك، ونالهم من الأذى البدني والاجتماعي والاقتصادي والفكري الكثير، فهاجروا إلى الحبشة، وحوصروا في شِعب بني هاشم، ومع ذلك كله استطاعوا تكوين القاعدة البشرية التي تستطيع حمل هذه الأمانة.

كما كان من مسئوليتهم تكوين القاعدة الأرضية، فكانت الهجرة إلى المدينة؛ لتتكون الدولة الإسلامية الأولى حيث الأرض والبشر والتنظيم في وحدة إسلامية جامعة، وكان على هذه القاعدة أن تنمو داخلياً، وأن تكوِّن ذاتها خارجياً، ومع هذه التحديات، وتلك الصعاب أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الدولة الإسلامية الأولى في المدينة بعد هجرته إليها، وكانت هذه الدولة ولا تزال المثل الأعلى لكل حكومة يقيمها المسلمون في أي عصر، ولكل مجتمع يريد أن يحيا حياة فاضلة كريمة ، وكان قائدها "محمد - صلى الله عليه وسلم -" المثل الأعلى لكل قائد أو حاكم مسلم، ولكل زعيم يريد لشعبه السعادة والخير، وإنقاذه من ظلمات الجهل.

بنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "المسجد النبوي"؛ لتظهر شعائر الإسلام، وترتفع كلمة الحق، فتعطى بذلك مظهر المجتمع في عقيدته، كما أن هذا المسجد المكان الذي يتلقى فيه المسلمون أمور دينهم وتوجيهاته، والمُنْتَدى الذي تتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي باعدت بينها النّزعات الجاهلية، وتأخذ المفاهيم الإسلامية الواحدة، وتستقى الدروس من المبدأ الجديد، فكان مركز حزب الله، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يلقى المحاضرات المنتظمة في كل

أسبوع، وذلك في "خطبة الجمعة"، ثم محاضرات إضافية كلما دعت الحاجة إلى ذلك، أو عَنّ له – عليه السلام – أمر من الأمور ليوضح الخط، ويرسم الطريق، ويبين المنهج الذي يجب أن يسلكه الأعضاء، ومن هذا المنظور الإسلامي يجب أن تكون هناك جماعة مخططة ومنظمة بشكل دائم، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتقف في وجه الانحراف والمنحرفين، فذلك هو صمام الأمن والأمان للوطن والمواطن.

وقد كانت جماعة المسلمين كذلك، كما كان رئيس التنظيم "محمد – صلى الله عليه وسلم – " وأعضاؤه صحابة رسول الله – عليه السلام – ورضي الله عنهم أجمعين، وبانتهاء جيل الصّحابة – رضي الله عنهم – بدأت زاوية الانحراف بالانفراج، وقد كان الانحراف يومذاك يسيراً، بيد أنه بدأ يتّسع، ويزداد بمرور الزّمن.

وإذا لم يكن تنظيم الصحابة قائماً بالمفهوم الحالي للتنظيم، إلا أنه موجود من حيث الفكرة، وطريقة التطبيق، حيث تلقى الجميع من مدرسة واحدة، ومن معلّم واحد، تلقياً بالسّماع، وتعلماً ليس بالرواية، وإنما بالعمل والتجربة والصّحبة، ومن هنا يجب أن يكون التلقي اليوم من مصدر واحد، والاستقاء من منهل واحد؛ كي تتوحد الأفكار، وتكون المشارب مشرباً واحداً، فإنه كلما كثرت المدارس، وتعددت المناهل، زاد الانفراج في زاوية الانحراف، ثم بدأ الاختلاف[1].

أعلن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن المسلمين أمة واحدة من دون الناس، بغضّ النظر عن الانتماءات للجنس أو العِرق أو الشّعب، وبغضّ النظر عن اللّغة التي يتكلمونها، المُهِمّ هو العقيدة الرّاسخة في النفس.

---

(١) جدد حياتك: للشيخ / محمد الغزالى السقا – بتصرف – ط: دار القلم – دمشق .

أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الحكومة الإسلامية في المدينة، وكان - عليه السلام - رأس هذه الحكومة، يطبّق منهج الله، ويقيم حدوده، وكان أصحابه مستشارين ووزراء له، كما كان قائداً للجيش، فإذا سار إلى حرب عيّن أحد مستشاريه مكانه رئيساً للدولة بالنّيابة، وإذا مكث في المدينة عيّن قائداً للجيش، كما كان هناك مقرّ عامّ لتلقى الفكر الإسلامي والتعاليم لمبادئ الإسلام، وإلقاء المحاضرات لتأكيد هذه المعاني في النفوس، فهو تنظيم وإعداد خاص بالأمة الإسلامية من دون الأمم.

وكان هناك مستشارون يرجع إليهم في الملمّات، وعقد المعاهدات، وتحديد الصّلات مع غير المسلمين، وكان بجانب ذلك يجمع إلى جانب هذه الأمور النواحي الدينية، فهو رسول الله للناس كافّة.

إن الإسلام يتمثّل جوانب الحياة من سياسية، ودينية، واقتصادية، واجتماعية [1]، بل تقع كلها في إطار الدّين، وتحت عنوانه، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يُشرف على جميع هذه الجوانب، ويرعاها حق رعايتها، فلم يكن الرسول ليقصر في جانب على حساب جانب آخر، ولا يهمل جانباً لتقوية جانب آخر، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده.

ولم يحاول أحد من المسلمين أن يفصل الأمور السياسية عن الدين، فيقول كما قال بعض الحكام: "لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة"، فبتلك الافتراءات استطاع الأجانب السيطرة على بلاد المسلمين وتحريكها مثل قطع الشطرنج، أو كالكرة التي يتقاذفها اللاعبون مرّة بالرّأس، وأخرى بالقدم، ففصل

---

(١) ذاته.

الدين عن الحياة من مصلحة المستعمرين، وتنحية الدين عن جوانب الحياة كما هو الحال في دينهم الذي لا تشريع فيه يوجد ازدواجية في الحكم، فرجال الدين لديهم يمارسون الطقوس الدينية على حين ينفرد الحكام بتسيير الأمور الدنيوية، وبذلك تكون هناك ازدواجية في السلطة، رجال الدين يشرفون على الأمور الدينية من داخل كنائسهم وصوامعهم، ورجال الحكم يشرفون على الأمور الدنيوية من داخل قصورهم، وعند نشوب خلاف لا بدّ من أن يرضخ أحدهم للآخر، الأمر الذي جعل صراعاً مريراً يقع بين الكنيسة والملوك، انتصر فيه الملوك في النهاية؛ حيث السلطة في أيديهم.

وفي كل عصر من الأعصر لا يعدم الحاكم الوسيلة للوصول إلى غايته عن طريق من يدّعي العلم، أو يتزيّا بزيّ العلماء، ففي كل مجتمع طلاب مصلحة، وهواة زعامة، وعشّاق مظهرية، وبخاصة ذلك الصّنف الذي لا يردعه رادع من كتاب أو سنة، أو ضمير أو خلق، حتّى عمّى الأمْرُ على بعض السّذج والبسطاء، فظنوا أن الدّين شئ، والسياسة شئ آخر، ونال أعداء الإسلام ما أرادوا في عزل الدّين عن واقع حيوات المسلمين.

بيْد أن مجالات التحدي قد اتّسعت، ومرّت الحياة في المدينة بمرحلتين أساسيتين:

أولاهما: قبول التحدي من مشركي العرب ومن معهم من اليهود في خطّ من الحصون ممتد من المدينة إلى تيماء، مروراً بوادي القرى، وخيبر، وفدك.

ثانيهما: قبول التحدّي من دولتي الفرس والروم، وبعض هذا التحدّي ما زال مستمراً حتى الآن في صورة جديدة.

ثم نرى مرحلة ثالثة، وهى "مرحلة الكوفة" التي استغرقتها الحروب الداخلية بين أمير المؤمنين "على بن أبى طالب" - رضي الله عنه - و"معاوية بن أبى سفيان" - رضي الله عنه- وبدت فيها بعض الثّمار المرّة لفتنة "عثمان بن عفان" - رضي الله عنه- وعن الصحابة أجمعين (١). وأريقت فيها دماء ما زالت رطبة حتى الآن، وأزهقت أرواح، وعلى الرغم من هذه الصّراعات في عهد الخليفة الراشد "على بن أبى طالب" - كرم الله وجهه - فقد أرسل جيشاً فتح "السّند" عام ٣٩هـ/٦٦٠م.

ثم كان التحدّي في عهد بنى أمية أكثر اتّساعاً، وعلى الرغم من هذا حاولت "دمشق" أن تمسك بالمبادرة فى يدها، وقد تمثّلت التحديات فى الآفاق التالية:

أولاً: الصراعات الداخلية بين القوى الإسلامية:

ثانياً: تنظيم وتحديث الدولة، وضبط التّوازن بين الأصالة الإسلامية والعربية، وبين الحضارات التى لقيها الإسلام، وبخاصة ما كان فى الدولة الرومية.

ثالثاً: حماية الدولة الإسلامية برّاً وبحراً، ومدّ حدودها، ومن أجل هذا خاضت حروباً امتدّت شرقاً إلى الأطراف الغربية للصّين، وشمالاً حتى القسطنطينية، وغرباً حتّى المحيط الأطلسى، وعبرت جبل طارق حتى أدركت السّهول الجنوبية فى "فرنسة"، وهذا مع المحافظة على نواة عربية إسلامية تحمل المسئولية العليا، والقيادات متعاونة مع الشعوب التى قابلت الإسلام ديناً.

---

(١) الإسلام والعروبة فى عالم مبعثر : د/ عبد العزيز كامل ص١٦١ بتصرف .

وكانت صورة التحدى فى العصر العباسى قد أصابها تعديل جديد، برز فيه الوجه الحضارى، وحوار الحضارات كان عقلانيا أحياناً، عنيفاً دامياً أحياناً أخرى، وشهد العالم الإسلامى تمزّق وحدته السّياسيّة، وبرزت خطورة سيطرة العناصر التركية المجلوبة على الجيش، وسيطرة أُسَر عربية وغير عربية على أجزاء من الدولة، وأصبح مضمون الخلافة رَمْزاً أكثر من حقيقة واقعة، وانعكس هذا استقلالاً للمنتجين الحقيقيين فى الزراعة والصناعة والتجارة، وثورات وتطلعات إلى السلطة فى أقطار الدولة، مما مَهّد الطّريق أمام زوال الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨، على يد التتار، ومع بروز مراكز بديلة لبغداد فى قيادة أجزاء من العالم الإسلامي، إلا أن أكبر التحديات فى هذه المرحلة كان عسكرياً، وأبرز ما فيه الخطر التتارى والصّليبى، وقد استطاعت المراكز البديلة صدّ الهجمات والاحتفاظ بالوجود الأسمى، وإن تعددت فيها القيادات، ولو صحب التعدد تعاوناً لاستطاع أن يثمر الإسلام خيراً، ولكن الصراع الذى حدث بينها استهلك الكثير من طاقة الإسلام.

ولعل أخطر ما حدث هو سبق دول غرب أوربة إلى كشف العالم الجديد، والطّواف حول إفريقية، وحول العالم، وبهذا العمل أمكنهم تطويق العالم الإسلامى والضغط عليه، ثم اختراقه وتمزيقه فى قطاعاته الآسيوية والإفريقية والعربية، وأصبح التحدى هو: كيف تحافظ الدول الإسلامية على استقلالها وأكثرها عجز عن ذلك[1].

(١) ذاته ص١٦٢ - ط: الكويت فى ١٥ من يناير ١٩٨٩م كتاب العربى .

ثم جاءت تباشير الصّحوة الإسلامية مع القرن العشرين على مستوىً وطنى، ولكل قطر شأن يغنيه، واستطاع بعضها أن يعيد استقلاله، وقويت الموجة بعد الحرب العالمية الأولى، وعلت بعد الحرب العالمية الثانية، وإن استطاع الاستعمار أن يغرس خنجراً غائراً فى جسم العالم الإسلامى، بدأ بوطن قومى لليهود أفرخ قيام إسرائيل كقاعدة استيطانية توسعيّة، تتلقى المدد الدائم البشرى، والمادى والمعنىّ من عدد من الدول الكبرى، وتمثل تهديداً دائماً للعالمين العربى والإسلامى، ولها تعاونها المنتظم مع قاعدة مناظرة فى جنوب إفريقية.

ومع ثورة الاتصال المعاصر، وتوافر موارد اقتصادية فى بعض أجزاء العالم الإسلامى كالنّفط، ومزيد من الإحساس بالأصالة من ناحية والرّغبة فى التكتل الواعى من جهة أخرى، وقوة الإحساس الأخطار المحدقة بالعالم الإسلامى، ظهرت الحاجة إلى تنظيم مجتمع جديد تبلور فى إنشاء "منظمة المؤتمر الإسلامى" بعد المحاولة الآثمة لحريق المسجد الأقصى فى عام ١٩٦٩م.

وما زال التحدى مستمراً بضراوة بالغة، ولا بد للمسلمين من الوحدة الشاملة، وإذا رجعنا إلى مقررات مؤتمر القمة الإسلامى الخامس، الذى شهدته الكويت فى يناير سنة ١٩٨٧م/ جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ لرأينا صورة هذا الشمول الذى يضم الآفاق السياسية والاقتصادية والثقافية والعلمية، ثم هو ينطلق من نقطة مركزية هى "المسجد الأقصى، والقدس الشريف، وفلسطين الإسلامية العربية، لتنداح دوائره حتى تضم العالم الإسلامى كلّه، والجاليات الإسلامية فى مهاجرها الجديدة، وهى مقررات تعنى بالبشر كما تعنى بالأرض التى يعيشون فيها، وتربط بين الأصالة والنظرة المستقبلية، وتنظر إلى التراث ككيان له نموّه

وحيويته المتجددة[1]. فلا بد من العمل، يقول -تعالى-: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ [سورة التوبة:١٠٥].

وإن دراسة الأحداث للاعتبار والذكرى، يقول -سبحانه وتعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف:١١١]

ويفرض هذا كله على العالم الإسلامي في العصر الحديث تشكيل عقلية إسلامية واعية، قادرة على الإحاطة بهذه الأحداث كلّها، ولا بد من تضافر الجهود دولاً وجماعات وأفراداً، يعملون بروح الفريق الواحد عابرة الحدود السياسية والعصبيات والزعامات الواهمة، والتوترات الإقليمية، مع رعاية هذه العقلية، وتشكيلها حواراً متصلاً يستهدف مزيداً من الوعي بمشكلات العصر، ومسئولياتنا في عالمنا الإسلامي كحضارة متفاعلة مع المسيرة العالمية، ونود أن تصبح هذه العقلية تياراً قوياً قادراً على اجتذاب كثير من الطاقات التي تبدّدها الصراعات الضيقة، والطائفية والاهتمامات الجزئية الانعزالية، لتتوجه جميعاً إلى مقابلة التحدي الحضاري المفروض على العالم الإسلامي.

مع أننا إذا كنا نتجه نحو هذا الهدف فهناك من يحاول صرفنا عنه وتبديد طاقاتنا في مسارب جانبية، وهذا يفرض علينا مسئولية أخرى، وهي : مقاومة العقبات التي يصنعها الآخرون في طريقنا، فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، ومع هذا فإن الطريق طويل، وملئ بالأشواك، والعمل فيه لتحقيق آمالنا في احتياج إلى تنسيق كامل على الصعيد الإسلامي العالمي، ومبدؤه الإنسان المسلم

---

(١) ذاته ص١٦٣.

في قطاعاته الأربعة: العربي، والأفريقي، والآسيوي، وجاليات المهاجر الجديدة [1]، وفى اهتماماته المتكاملة.

وأَوْلى الهيئات بشئون تنظيمه ومتابعته هي "منظمة المؤتمر الإسلامي"، والأمل الكبير في أن تقوم "الكويت" في الدورة الخامسة لرياستها المؤتمر بدورٍ رائد نحو هذا الهدف المنشود.

(١) ذاته بتصرف ص١٦٤ وما بعدها

obeikandl.com